قراءة في كتاب:

# قبل السُّنَّة.. الآيات الشيطانية في بدايات الإسلام

تأليف: أ.د. شهاب أحمد
قراءة: بيتر ويب(*)
ترجمة: د. حيدر قاسم مَطَر التميمي(**)

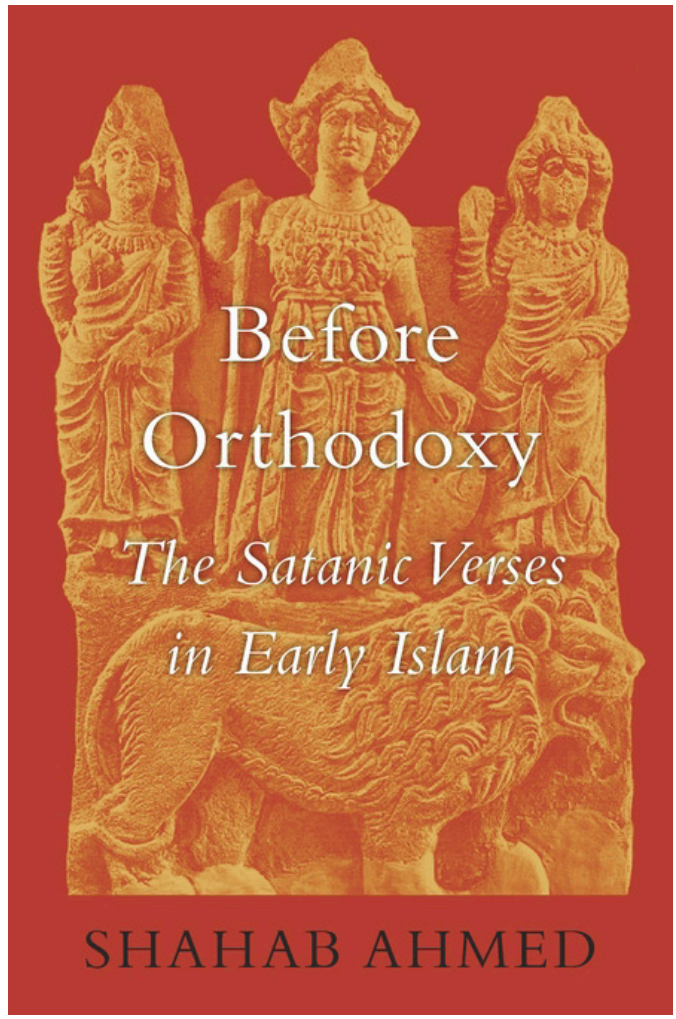


(*) جامعة لايدن – هولندا. p.a.webb@hum.leidenuniv.nl
(**) بيت الحكمة / قسم الدراسات التأريخية / بغداد. Haidarq2005@gmail.com

صدر كتاب في عام ٢٠١٧م، عن جامعة هارفارد Harvard University، موضوعه شائك بالنسبة للدراسات الإسلامية، وهو ما نجد ضرورة كبيرة لترجمتهِ بغية تفنيد ما ورد فيه من آراءٍ واستنتاجاتٍ خطيرة حول تاريخ الفكر الإسلامي المبكِّر. ترجمة عنوانه: (قبل السُّنَّة.. الآيات الشيطانية في بدايات الإسلام)Before Orthodoxy: The Satanic Verses in Early Islam. تأليف البروفيسور محمد شهاب أحمد (شهاب أحمد)[١]. وهذا الكتاب[٢] في الأصل هو تطوير لأطروحة دكتوراه المؤلِّف، والتي حصل عليها من جامعة برينستون Princeton University عام ١٩٩٩م، تحت إشراف المُستشرق البريطاني مايكل كوك Michael Cook.

كان الباكستاني شهاب أحمد طالباً في الجامعة الإسلامية الدولية في ماليزيا International Islamic University Malaysia يوم صدرت رواية (آياتٌ شيطانية) لمؤلِّفها الهندي الأصل البريطاني الجنسية سلمان رشدي[٣]، التي صدرت في لندن بتاريخ ٢٦/ سبتمبر عام ١٩٨٨م، قبل أنْ يُصدر في ١٤/ فبراير/ ١٩٨٩م مرشد الثورة الإسلامية، روح الله الخميني (١٩٠٢-١٩٨٩م)، فتوى بقتل رشدي وكل مَن تعاون معه في نشر الرواية أو ترجمها. وقد يعتقد كثيرون أنَّ عبارة (آيات شيطانية) من تأليف رشدي، لكن طلَّاب التاريخ الإسلامي يعرفون أنَّها تصف حادثة يُقال إنَّها وقعت مع النَّبي مُحَمَّد (ﷺ)، وهي حادثة تُعرف باسم (الغرانيق)، تعرضت لنقاشٍ طويل على مدى القرون الأربعة عشر التي تلت ظهور الإسلام.

انكبَّ أحمد على دراسة حادثة (آيات شيطانية = الغرانيق)، وخصَّص لها أطروحته للدكتوراه، التي قدَّمها في جامعة برنستون الأميركية. وفي العام ١٩٩٨م، نشر جزءاً منها كبحثٍ في دورية (دراسات إسلامية) المتخصصة. تبوَّأ أحمد منصب بروفيسور في جامعة هارفارد، وأُصيب قبل أعوامٍ بمرض عضال. وقبل وفاتهِ في ٢٠١٥م، عن (٤٩) عاماً، قام بإعداد كلِّ أعمالهِ للنشر. شكَّلت أطروحته أحدث منشوراته بعد وفاتهِ، إذ قامت بنشرها هارفارد، عام ٢٠١٧م، في كتابٍ يبدو أنَّ الجامعة المرموقة خشيت أنْ يؤدي عنوانه إلى ردود فعل، فعدَّلته ليصبح التالي: (قبل السُّنَّة: الآيات الشيطانية في بدايات الإسلام).

حادثة (الغرانيق) التي يُقال إنَّها وقعت مع النَّبي مُحَمَّدٍ (ﷺ)، وبداية الحديث عمَّا قد عُرف في بعض كتب التفسير عن آياتٍ شيطانية يمكن أنْ يُجريها الشيطان على لسان الأنبياء، فقد جاء في الذكر الحكيم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (سورة الحج، آية: ٥٢).

نعود إلى ما قيل في موضوع الغرانيق ولتعريف معناها في اللغة كما جاء في المعاجم: "الغرانيق: هي جمع (غرنوق)، وهو طيرٌ أبيض طويل العنق قال ابن الأنباري: الغرانيق: الذكور من الطير وأحدها غِرْنَوق وغِرْنَيْق سُمِّي بهِ لبياضهِ وقيل: هو الكُرْكيُّ. وكانوا يزعمون أنَّ الأصنام تُقرِّبهم من الله (ﷻ) وتشفع لهم إليه، فشُبِّهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء"[٤].

حديث الغرانيق أورده ابن سعد (ت٢٣٠هـ

/ ٨٤٥م) في طبقاتِهِ الكبرى، والبزَّاز (ت٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)، وابن جرير الطَّبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م) في تاريخ الرُسُل والملوك، كذلك ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، والنحَّاس (ت٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) في معاني القرآن، وابن مردويه (ت٤١٠هـ/ ١٠١٩م)، والبيهقي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) في الدلائل، والشهرستاني (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) في المِلَل والنِّحَل، والضياء المقدسي (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) في المختارة، وابن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) في الفتاوى، وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) في الجلالين، وغيرهم كثيرون. وقد رويت عن ابن عباسٍ (رضي الله عنهما) من طرقٍ عدَّة، وعن جماعةٍ من التابعين بأسانيد، منهم: عروة، وسعيد بن جُبير، والضحَّاك، وأبو العالية، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعكرمة، وقُتادة، ومُحمَّد بن كعب القرظي، ومُحمَّد بن قيس، وغيرهم.

في الروايات، كان الرسول وأتباعه عُرضةً لتنكيلٍ واسع دفع بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة، وأنَّ الرسول (ﷺ) تمنَّى لو يتوصل إلى تسويةٍ مع قريش، وأنَّه في ذات يوم وبينما كان يتلو القرآن عند الكعبة ويقرأ سورة النجم، فلمَّا بلغ قوله (عزَّ وجلَّ): {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ـ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ} (سورة النَّجم، الآيتان: ١٩-٢٠)، فوسوس الشيطان للرسول (ﷺ) على لسانهِ الجملتين التاليتين: (تلك الغرانيقُ العُلىٰ منها الشفاعة تُرتجى)، وفي روايةٍ أخرى: (تلك هي الغرانيق الأولى، وإنَّ شفاعتها لتُرتجى). وذكر ابن الكلبي أنَّهم: "كانوا يقولون: بنات الله، وهنَّ يشفعن إليه"(٥).

وحسب الروايات، فرحت قريش لأنَّ الرسول (ﷺ) وصف آلهتها بالشفيعة، وسجد المسلمون وسجدت قريش، وأقفل اللاجئون المسلمون في الحبشة عائدين إلى مكَّة، لكن جبرائيل (عليه السلام) استعرض مع الرسول السورة، ولمَّا وصلا إلى الآيتين الشيطانيتين، قال جبرائيل للرسول إنَّه لم يأتِ إليه بهما، فحزن النَّبي، لكن الله (عزَّ وجلَّ) نسخ الآيتين، وأنزل عدداً من الآيات ليؤكِّد براءة الرسول!

أحصى شهاب أحمد كلَّ الروايات الإسلامية حول الآيات الشيطانية، ورفع عددها من (٢٨) في أطروحتهِ للدكتوراه إلى (٥٠) في كتابهِ الجديد، وقدَّم عرضاً تفصيلياً ومتخصصاً لعِلم الحديث، وتبنَّى التصنيف الإسلامي المُعتمد، لناحية أنَّ الروايات الإسلامية تنقسم إلى ثلاثة: سيرة ومغازٍ، وتفسير، وحديث. والمعروف أنَّ السيرة والتفسير أقدم تاريخياً، يليها الحديث، الذي بدأ ظهوره بعد حوالي (٢٠٠) عاماً على وفاة الرسول (ﷺ)، أي أثناء خلافة المأمون العباسي (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م).

اعتقد أحمد أنَّ كُتَّاب السيرة: ابن إسحاق (٨٥ - ١٥١هـ/ ٧٠٣ - ٧٦٨م)، والواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ/ ٧٤٧ - ٨٢٣م)، أرادوا تدوين تاريخ الأمة الفتية، فقدَّموا، برعاية الخليفة العباسي الأول السَّفاح، رواياتٍ أقرب في روحيتها إلى رؤية القرآن للرُسُل كبشرٍ يُخطئون، ثمَّ يتوب الله عليهم ويهدي خُطاهم، وهذهِ صور تنطبق على يوسف وداود وسليمان ويونس في القرآن. حتَّى مُحمَّدٍ المصطفى (ﷺ)، عدَّد أحمد أكثر من ثلاثين آية تأمره التروِّي في التلاوة وعدم استعجال الوحي.

هذهِ الصور دفعت شهاب أحمد للاعتقاد أنَّ المسلمين الأوائل نظروا إلى النبوَّة وكأنَّها عملٌ

ارتقى مع التجربة، وأنَّهم تبنَّوا النمطية السائدة التي تمتحن الرسول، وتدفعه إلى حافة اليأس، قبل أنْ ينصره الله (ﷻ) ويجعله من الغالبين. على هذا الشكل كانت السيرة.

أمَّا التفسير، فمُحاولاتٍ لتقديم حياة المسلمين الأوائل لوضع الآيات في سياقٍ يسمح بتفسيرها، إذ بدون سياق تصبح الآيات عصيَّةً على التفسير.

ثمَّ الحديث، وهذا مشروع تدوين تأريخي مختلف عن سابقيه، ومبني على محاولة التخفيف من الجانب البشري للرسول (ﷺ)، ومنح العصمة للجزء الأكبر من أعمالهِ وحياتهِ. لكن حتَّى العصمة، اختلف المُحدِّثون في مدى تغطيتها لنشاطات الرسول، فاعتبر البعض أنَّها تقتصر على تلاوتهِ الآيات، واعتبر البعض الآخر أنَّها تشمل الكبائر فقط، فيما اعتبرت بعض الفِرَق، مثل الشيعة الإمامية، أنَّها عصمة كاملة شاملة لجميع أعمال وأقوال الرسول (ﷺ)[٦].

يتطرق أحمد إلى التأثيرات التاريخية في المدارس الثلاثة، مثلاً تأثير المأمون الآتي من (مرو) شرق خراسان مع تأثير آسيا الوسطى وبلاد فارس، وهو ما يظهر جلياً في هوية مؤلِّفي (الستة الصِّحاح)، وجميعهم من غير العرب ممَّن ينتمون إلى هذهِ المناطق. وفي هذهِ المناطق، الشخصيات التاريخية غالباً ما تكون إلهية مقدسة، مقارنةً بالمشرق العربي، حيث الشخصيات التاريخية أكثر بشريةً. قبل المأمون، كان التاريخ العباسي أكثر عربيةً، بل مشرقي الطَّابع، حتَّى أنَّ مهد الحركة العباسية كان في الحُميمة في بلاد النبط، جنوب الأردن، وهو ما قد يُفسِّر روايات المسلمين الأوائل التي تصوِّر الرسول (ﷺ) كبشريٍّ يُخطئ، مقارنةً بالروايات العباسية والفارسية اللاحقة، التي أسبغت عليه عصمةً تُقارب القداسة، ما يُحتِّم نسف قصة (الآيات الشيطانية)، واعتبارها دساً قام بهِ أعداء الإسلام من الزنادقة وغير المسلمين.

وفي هذا الصدد أحال شهاب أحمد إلى قراءة كتاب البروفيسور طريف الخالدي (صور مُحَمَّد: روايات النَّبي في الإسلام عِبرَ القرون)[٧]، الذي قال في كتابٍ آخر له: "أعظم إنجازات ابن إسحق تتمثل في مدى اقتدارهِ على دمج سيرة مُحَمَّد داخل تاريخ الأنبياء وتراجم الأولياء في الشرق الأدنى، وترتيب هذهِ السيرة ترتيباً تعاقبياً بإخضاع الحديث للتفسير والتسلسل الزمني، غير أنَّ صورة مُحَمَّد التي تصل إلينا عِبرَ قلمهِ هي صورة لا تزال تحتفظ بصدقيتها وإنسانيتها. فنحن لم نكن قد وصلنا بعد إلى العصر الذي صارت فيه صورة مُحَمَّد تصب في قالب العِصمة أو التفوق على الطبيعة"[٨].

واعتبر أحمد أنَّ مهندسي السُّنَّة بشكلها اللاحق، كانوا يُدركون التباين بين المسلمين الأوائل والسُّنَّة اللاحقة. وينقل القاضي عياض (٤٧٦-٥٤٤هـ/ ١٠٨٣-١١٤٩م) أنَّ: "هذا حديثٌ لم يُخرجه أحدٌ من أهل الصحَّة، ولا رواهُ ثقةٌ بسندٍ سليم متصلٍ؛ وإنَّما أُولع بهِ وبمثلهِ المفسِّرون والمؤرِّخون المولَعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون من الصحف كلَّ صحيحٍ وسقيم"[٩].

الطريف أنَّ مَن يتم تصنيفهم اليوم على أنَّهم من متشدِّدي العقيدة، لم ينسفوا حادثة (الآيات الشيطانية)، بل قبلوا حدوثها، وإنْ بتعديل بعض تفاصيلها، وهذا ليس في كتاب أحمد، ولكن في بحثهِ المنشور قبل (٢٠) عاماً. إذ يلفت فيه إلى أنَّ ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م)

وافـق على الحادثة[١٠]، وأيَّده مُحَمَّد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣-١٧٩١م)، فيما رفضها علماءٌ من الأزهر، الذين اعتبروا - ابن تيمية - أنَّه ليس من السَّلف الصالح. الفارق الوحيد يكمن في أنَّ ابن عبد الوهاب اعتبر أنَّ الرسول (ﷺ) لم يتفوَّه بـ(الآيات الشيطانية)، بل إنَّ الشيطان نفسه فعل ذلك، فاختلط الأمر على الحاضرين[١١]!

وأخيراً، يمكن القول إنَّ ما تفعله الروايات عندما تتوافق بالإجماع هو تدوين رؤيتها التاريخية لموضوعٍ ما، وهي رؤية يتبناها الكاتب أو ربما المجموعة التي يمثلها الكاتب، كتب المؤرِّخ الأميركي أنطوني ستيورات Anthony Terence Quincey Stewart (١٩٢٩-٢٠١٠م): "هكذا يصبح التاريخ تاريخ مدوِّنيه، أكثر منه تاريخ المدوَّن عنهم".

## النص المُترجَم:

توجد فجوة أمدها (٢٠٠) سنة بين نبوءة[٢١] مُحَمَّد وفترة أول تدوين تاريخي لها بالأدب العربي، وهي فترة تمثل فجوة معرفية بين نصوص وحقيقة حياة مُحَمَّد. يدخل كتاب شهاب أحمد (ما قبل الأصولية) بهذا النقاش عِبرَ تفحُّصٍ دقيق للسُّنن النصية الموجودة عن حدثٍ معيَّن بنبوءة مُحَمَّد لاختبار كيف تعكس كتب القرنين الثالث والرابع الهجريين بأمانة الذكريات التاريخية للمُجتمعات الإسلامية قبل بدء التدوين المُنسَّق لسيرة النَّبي والتفسير القرآني.

الحالة التي يختبرها هي الآيات الشيطانية، أي اللحظة المزعومة عندما خدع الشيطان النَّبي ليتلو آياتٍ تمدح آلهة ما قبل الإسلام، اللات والعزَّى ومناة، التي عبدتها قريش الوثنية، كما لو أنَّ تلك الآيات كانت جزءاً من القرآن. يرفض المسلمون المعاصرون أيَّة إمكانية بأنَّ الشيطان امتلك ذلك النفوذ على مُحَمَّد، وإنكار الآيات الشيطانية هو جانب جوهري من الأصولية الإسلامية. فرضية (شهاب) هي أنَّ المسلمين الأوائل آمنوا أنَّ النَّبي استسلم للشيطان، أو وفقاً لبعض الروايات إلى أحد نوَّاب الشيطان، وأطلق في الواقع الآيات المؤكِّدة لقوى الشفاعة للآلهة الوثنية. وعند حلول القرن الثالث للهجرة أصبح أصحاب الحديث رافضين لهكذا مضامين لارتكاب مُحَمَّد الخطأ، وبالتالي نسَّقوا تغييراً كاملاً نافياً الحادثة. أدى النَّفي التقدمي منذ ذلك الحين إلى رفضٍ أصولي مطلق جديد لتاريخية الحادثة. قصد (أحمد) تفصيل الفرضية بثلاثة مجلَّداتٍ، لكن وفاته في ٢٠١٥م تسبَّبت بأنَّ مجلَّده الأول كُرِّس لدراسة روايات الآيات الشيطانية في القرنين الأولين للإسلام قبل تغيير أصحاب الحديث لنغمتهم، وكان الأخير أيضاً.

الروايات التي يسعى (أحمد) للتحقيق فيها روايات عابرة، وهناك نصوص قليلة جداً تسبق وقت جهود أصحاب الحديث لنفي الآيات الشيطانية، والدليل النصي مبعثر بين السِيَر المبكِّرة للنَّبي وتفسير القرآن وكتب متخصِّصي الحديث أنفسهم والتي ذكرت الروايات من أجل دحضها. وطالما لا توجد نصوص آيات شيطانية تسبق نهاية القرن الثاني للهجرة، فالجزء الأكبر من تحليل (شهاب) يُعنى بروايات لا تتوفر بصورةٍ مكتوبة. ويقترح أنَّ الروايات المبكِّرة المفقودة يمكن استحضارها عِبرَ سلسلة الأسانيد للنُّسخ المكتوبة لاحقاً، وربما يظهر هنا مصدر الاهتمام

الرئيسي للكتاب. بينما تُثير قصة الآيات الشيطانية الاهتمام بحدِّ ذاتها، فنقاش (شهاب) بأننا نستطيع استعادة كيفية استذكار المسلمين التاريخ بالقرنين الأول والثاني للهجرة يتحدى النقاشات الرائدة عن صحَّة علم التاريخ الإسلامي، وطبيعة ما يُسمَّى (السُّنَّة الإسلامية) ونقاشات عن تحديد موعد الحديث. وإذا حكم القُرَّاء عليه بالنجاح، فعمل (شهاب) له إمكانية تبرئة مساحة واسعة من الكتابة التاريخية الإسلامية، وتعزيز صحَّة ما تُخبرنا بهِ المصادر العربية الموجودة حالياً عن نبوءة مُحَمَّد.

يؤكِّد (شهاب) أنَّ اهتمامه ليس بالمسائل الوضعية فيما إذا كانت حادثة الآيات الشيطانية "قد وقعت بالفعل"، ولكن نيَّة الكتاب وضعية قطعاً: فمصدر اهتمامه الشامل هو تأكيد أنَّ روايات الحَدَث وجِدت بالفعل قبل قرنٍ أو أكثر من تدوينها. وعِبرَ نقاشه فإنَّ شكل الروايات الكثيرة الموجودة للآيات الشيطانية قد نشأ ببداية القرن الثاني للهجرة "على أبعد تقدير"، فهو يلمِّح أنَّ النصوص الموجودة حالياً ليست مزورة بالإسقاط الخلفي إلى أفواه علماء القرنين الأول والثاني عِبرَ الأسانيد الزائفة، لكنها في الواقع تستذكر الروايات المتداولة ضمن قفزةٍ قصيرة عن الذاكرة الحية للنَّبي. ويعني هذا أنَّ الخطوط العامة الأساسية للقصص المتصلة بسيرة النَّبي قد كُتبت مبكِّراً.

افتراضات (شهاب) مثيرة نظراً لوجهة النظر واسعة النطاق بأنَّ المصادر التاريخية والتفسيرية تُعد ذات أسانيد ضعيفة جداً، لكن (شهاب) يتوقع ذلك ويعتقد أنَّ ضعف تلك الأسانيد بعين الناظر فحسب. يُلقي شهاب باللوم على أصحاب الحديث في تشويه تاريخية حادثة الآيات الشيطانية واختراع أصولية جديدة؛ لذلك يهتم قليلاً بالآراء الازدرائية والتي تُعبِّر عن المؤرِّخين والمفسِّرين. يرى (شهاب) أنَّ أوائل المؤرِّخين والمفسِّرين كانوا بريئين من ألعاب تزوير الإسناد لأصحاب الحديث، والسخرية التي تلقوها منهم يجب إسقاطها.

يستحضر شهاب أعمال الأعظمي[٣١] وشولر[٤١] عن الممارسة غير الرسمية للكتابة في القرن الثاني للهجرة، ليُظهر أنَّ العلماء المسلمين الأوائل وجدوا رواياتٍ في النصوص، أو دفاتر ملاحظات، والتي حافظت على القصص إلى أنْ دوِّنت وفق مجموعات القرن الثالث الموجودة حالياً. يشق (شهاب) طريقاً وسطاً بين آراء الأعظمي الحماسية وشولر الأكثر اعتدالاً بشأن الكتابة المبكِّرة للحديث، ويرى أنَّ الرواة الأوائل سجلوا معنى القَصص (الرواية بالمعنى) وليس (اللفظ) للرواة السابقين. يدعم هذا طريقة (شهاب)، فهو يستخدم نظريتي الأعظمي وشولر لافتراض أنَّ رواية القرن الثاني كانت مستقرة نظراً لانتشار الكتابة غير المنشورة، ويقترح أننا نستطيع تثبيت دقَّة القَصص عِبرَ تحليل معناها.

يذكر (شهاب) أنَّه يقيس تماسك المعنى بين القَصص المنسوبة إلى راوٍ أصلي واحد عِبرَ تحليل ما إذا كانت النسخ تُبدي استمرارية "الوحدات القَصصية (narrative units)، والزخارف القَصصية (narrative motifs)، والتفصيلات التأويلية (hermeneutical elaborations)". إذ تُشير الوحدات القَصصية إلى التحليل البُنيوي للحبكة، وتُشير الزخارف إلى تفاصيل معينة للمُحتوى، أمَّا التفصيلات التأويلية فهي عناصر تعمل "لتفسير وتحليل الرواية".

في الفصل الثاني، وهو الفصل الذي من الممكن اعتباره الفصل التطبيقي للتنظيرات والمحددات التي وردت في الفصل السابق، والمعنون بالسرديات الأولى أو الروايات وكيفية انتقالها، يطرح المؤلِّف أسئلةً مختلفة ولكنها مترابطة فيما بينها وذلك بهدف فهم متى وكيف تمَّ قبول هذهِ الروايات في العصور الإسلامية الأولى؟ وفي المقابل كيف ومتى ولماذا تمَّ رفض هذهِ الروايات؟ كما تتعلَّق الأسئلة الأخرى أيضاً حول مضمون هذهِ الروايات أو محتواها، وما الذي من الممكن أنْ تُخبرنا بهِ هذهِ الروايات عن نمط التفكير في العصور الإسلامية الأولى؟ بالإضافة إلى ذلك فإنَّ الجزء الثالث من هذهِ الأسئلة يتناول مضمون هذهِ الروايات مع التمحيص في الرواة الذين عن طريقهم تناقلت هذهِ الروايات للأجيال اللاحقة؟ كما يتناول الجزء الثالث من هذهِ الأسئلة العلاقة بين جغرافيا انتشار الروايات وسند هذهِ الروايات، لفهم كيفية وأسباب انتشار هذهِ الروايات في بقعةٍ جغرافية معينة دون الأخرى.

في هذا الفصل الثاني، وهو الفصل المركزي والتفصيلي والأكثر تعمقاً من بقية الفصول في الكتاب، يتناول المؤلِّف ما يُقارب خمسين رواية مختلفة الأسانيد ومختلفة المتن مع تشابهٍ في المضمون، وذلك عن طريق قيامهِ بتقسيم الروايات بشكلٍ تاريخي على مجموعاتٍ تعتمد على الراوي والسياق الزمني في الوقت نفسهِ، إذ يتناول في المرحلة الأولى رواية المؤرِّخ والمفسِّر مُحَمَّد بن جرير الطَّبري (٢٢٤-٣١٠هـ) كما جاءت في تفسير الطَّبري المُسمَّى بـ(جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وتحديداً من خلال سند هذهِ الرواية، إذ تمَّ النظر فيها من هذهِ الزاوية، وذلك نقلاً عن كتاب السيرة النبوية لابن إسحاق (٨٥-١٥١هـ)، بإسناد مُحَمَّد بن كعب القرظي. وهو ما يفعله في جميع الروايات الخمسين اللاحقة من تمحيصٍ للسند والمتن، ومضمون كلِّ روايةٍ على حِدة، والتغيرات التي لحقت وطرأت على الروايات الأخرى مع تقادم الزمان، وتغير الرواة، وكلَّ ما قيل عن الراوي لاحقاً، وذلك بهدف إضعاف الرواية، وإدراجها في خانة الضعف وعدم الوثوق بها.

وكخلاصةٍ لهذا الفصل المكثَّف، الذي يهدف إلى البحث والتمحيص وقراءة الروايات بشكلٍ معمَّق، يذهب المؤلِّف ومن خلال تحليلٍ مطوَّل للروايات إلى أنَّ السند كان عاملاً مهماً وحاسماً في تناقل هذهِ المسألة وتداولها، بالرغم من التفاوت الزمني بين هذهِ الروايات، واختلاف المضامين؛ ذلك أنَّ هذهِ الرواية تمَّ تناقلها عن طريق الكثير من الأسماء التي لها وزنها وثقلها في التاريخ الإسلامي، كما هو الحال لدى سعد بن جُبير، ومجاهد بن جبر، والضحَّاك، وعكرمة، والحسن البصري، وقُتادة، ومقاتل بن سليمان، وغيرهم الكثير، وذلك قبل نشوء الأصولية التي تحدث عنها الفصل الأول.

في الفصل الثالث، يطرح المؤلِّف سؤالاً إضافياً للسؤال المطروح في الفصل السابق، وهو: لماذا استقبل المسلمون الأوائل هذهِ الواقعة بالإيجاب؟ ذلك أنَّه وبالعودة إلى الأصولية الإسلامية اللاحقة التي رفضت رواية هذهِ الواقعة واعترضت عليها، حيث يعود هذا الرفض لمبدأين، لاهوتي وابستمولوجي يقومان على عصمة النَّبي، في حين نجد أنَّ هناك خطاباتٍ مستقلة، أو مختلفة عن الخطابات الأرثوذوكسية اللاحقة، التي تتمثل في الحديث، والسِّيَر والمغازي، والتفاسير المختلفة، تلك الخطابات التي نوقشت في الفصل الأول

بشكلٍ مُجمل وغير تفصيلي، والتي تُعتبر بمثابة الذاكرة التاريخية الجماعية، أو مشاريع مغايرة ومختلفة للحقيقة في تلك الفترة، والتي اتخذت مساراتٍ مختلفة لاحقاً؛ ذلك أنَّ هذهِ المسارات اللاحقة كانت تهدف التهذيب، والدفاع عن الكثير من الأفكار والتوجهات التي لم تكن مطروحةً في السابق، بل تشكَّلت بعد القرنين الثاني والثالث نتيجةً للانقسامات والصِّراعات التي دارت بين الأطراف المختلفة في السياق الإسلامي، الأمر الذي أثر ويؤثر بدورهِ في المقاييس اللاحقة لعِلم الحديث وأدواتهِ التي يستخدمها في (فلترة) هذا التراث المتداخل، والمليء بالمؤثرات الثقافية المختلفة.

مهما يكن الأمر، فإنَّ الأسباب التي جعلت التعامل مع هذهِ الروايات بالإيجاب في العصور الإسلامية المبكِّرة، يعود بشكلٍ أساسي إلى أنَّ الأسانيد – بعيداً عن المتن – كانت تلعب دوراً مهماً في قبول هذهِ الروايات، كما أنَّه في الجانب الآخر كان الرواة أقرب لبشرية الحدث، وإمكانية وقوعهِ، بعيداً عن تلك النظرة المثالية للأشخاص التي تكونت لاحقاً بأثرٍ رجعي.

في الجانب الآخر، نجد أنَّ العوامل الثقافية كان لها كبير الأثر في قبول هذهِ الرواية وتداولها في الأزمنة الإسلامية المبكِّرة، وبشكلٍ خاص تلك العلاقة الملتبسة والمعقَّدة بين الأطراف المتنافسة والمتصارعة في الكثير من الأحيان، المتمثلة في مناوئي الدعوة ومناصريها من الجهة الأخرى، إذ إنَّ حدوث هذهِ الواقعة كان ولفترةٍ طويلة علامة من علامات تأثير قوة قريش على المسار العام للأحداث، بما يشمل النصوص والتدخلات المختلفة من الوحي، ذلك أنَّها كانت بمثابة تأثير المعارضة في الدعوة الجديدة، وهو الشعور الذي جعل من الفئة المعارضة تُصاب بالزهو والفخر من هذهِ الواقعة.

يبدو ممَّا سبق أنَّ أصل قصة الآيات الشيطانية لا يمكن اشتقاقه من النُّظُم المعرفية المختلفة التي عَمِل الرواة وفقها. يظهر الانسجام الروائي الشامل أصلاً واحداً باشر منه علماء التاريخ والتفسير والحديث عملهم. ربما وقع الحَدَث بالفعل كما يُظهر (شهاب) إمكانية ذلك، أو اخترعه المسلمون؛ لأنَّهم أرادوا سيرة النبوءة المبكِّرة لمُحمَّد أنْ تحوي قصصاً عنه وهو يتساءل عن بعثتهِ (كما يُظهر ذلك شهاب أيضاً).

يُقيِّد (شهاب) دراسته بالسُّنن الإسلامية العربية، وخصوصاً تلك التي لكُتَّاب السُّنَّة. وربما يُفسِّر هذا الانسجام الروائي الملحوظ، فهل يعطي حديث الشيعة خيوطاً مختلفة؟ الأكثر أهميةً هو أنَّ اختيار (شهاب) للمصادر لا يُعطي إمكانيات التطور الروائي عِبرَ التقاء الديانات التوحيدية في القرن الأول للهجرة.

## الهوامش:

(١) ولد شهاب أحمد في عام ١٩٦٦م، وتوفِّي عام ٢٠١٥م. كان عالماً باكستانياً أميركيا مختص بالدراسات الإسلامية في جامعة هارفارد. ولد شهاب في سنغافورة، وتلقَّى تعليمه بمدارسها قبل انتقالهِ إلى الجامعة الإسلامية الدولية في ماليزيا. وبعد عملهِ صحافياً في أفغانستان نال الماجستير من الجامعة الأميركية في القاهرة، والدكتوراه من جامعة برينستون. مارس التدريس بمراحل مختلفة في جامعة هارفارد. كان شهاب متعدد اللغات، ومجال عملهِ العام هو تاريخ الفكر الإسلامي، مع اهتمامٍ خاص بحادثة الآيات الشيطانية وتقييم تاريخيتها من قبل العلماء المسلمين للعصور الوسطى. توفِّي بسرطان الدم. يُنظر:

Elias Muhanna, *How Has Islamic Orthodoxy Changed Over Time?*, DECEMBER 23, 2015, WEB.:

https://www.thenation.com/article/archive/contradiction-and-diversity/;

https://en.wikipedia.org/wiki/Shahab_Ahmed

(2) The Satanic Verses Incident in the Memory of the Early Muslim Community: A Study of the Earliest riwāyahsand their isnāds, Mohammed Shahab Ahmed, PhD. dissertation, Princeton University, 1999.

هذا العنوان لرسالة الدكتوراه هو الموجود في قائمة مراجع الكتاب الجديد، ويختلف عن العنوان الموجود في موقع جامعة برينستون، في وضع كلمة analysis (تحليل)، بدلاً من Study (دراسة)، ليكون العنوان: (حادثة الآيات الشيطانية في ذاكرة الجماعة الإسلامية المبكِّرة: دراسة لأوائل الروايات والأسانيد).

The Satanic verses incident in the memory of the early Muslim community: an analysis of the early Riwāyahs and Their Isnāds. (*Before Orthodoxy: The Satanic Verses in Early Islam*, Cambridge ma: Harvard University Press, 2017. 348 pages).

كما تعود صورة غلاف الكتاب لجدارية آلهة العرب قبل الإسلام، وهي من اليمين إلى اليسار: اللات، العزَّى، مناة. ضمن آثار مدينة الحضر العراقية، والتي تعود للقرن الأول الميلادي. وتُعرض حالياً في المتحف العراقي، ضمن قاعة مدينة الحضر القديمة.

(3) Sir Ahmed Salman Rushdie, *The Satanic Verses*, London: Penguin Books, 1988.

(٤) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن علي الرويفعي الأنصاري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، ج٦، ص٦١٦.

(٥) أبو المنذر هشام بن مُحَمَّد بن السائب (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط٣، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٥م)، ص١٩.

(٦) لمزيدٍ من التفاصيل حول موضوعة العصمة في الفكر والعقيدة الإمامية الاثني عشرية، يُنظر: الحر العاملي، أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن (ت١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م)، **التنبيه بالمعلوم من البرهان على تنزيه المعصوم عن السهو والنسيان**، تحقيق: محمود البدري، (قم: مؤسَّسة بوستان كتاب، ١٤١٨هـ)؛ الحيدري، كمال، **العصمة.. بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني**، تحرير: محمد القاضي، (بغداد: مؤسَّسة الإمام الجواد (عليه السلام) للفكر والثقافة، ٢٠١١م)؛ العاملي، محمد محمود مرتضى، **فلسفة العصمة عند الشيعة الإمامية**، (بيروت: دار الولاء للطباعة والنشر، ٢٠١٥م).

(7) Tarif Khalidi, *Images of Muhammad: Narratives of the Prophet in Islam Across the Centuries*, New York: Crown Publishing Group, 2009.

(٨) الخالدي، طريف، **فكرة التاريخ عند العرب.. من الكتاب إلى المقدمة**، ترجمة: حسني زينة، (بيروت: دار

الجمل، ٢٠١٥م)، ص٨٣.

(٩) أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، **الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ج٢، ص٧٥٠.

(١٠) ممَّا أورد ابن تيمية: "وتنازعوا هل يجوز أن يسبق على لسانِه ما يستدركه الله تعالى ويُبينه له، بحيث لا يُقره على الخطأ. كما نُقل أنَّه أُلقي على لسانِه (ﷺ): تلك الغرانيق العُلى، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى؛ ثمَّ إنَّ الله تعالى نسخ ما ألقاه الشيطان وأحكم آياتِه. فمنهم مَن لم يجوِّز ذلك، ومنهم مَن جوَّزه إذ لا محذور فيه؛ فإنَّ الله ينسخ ما يُلقي الشيطان ويُحكم الله آياتِه والله عليمٌ حكيم، {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}. أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، **منهاج السُّنَّة النبوية**، تحقيق: محمد رشاد سالم، (الرياض: جامعة الإمام مُحمَّد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ج١، ص٤٧١.

(١١) لمزيدٍ من التفصيل حول رأي مُحمَّد بن عبد الوهاب في هذا الموضوع، يُنظر: مُحمَّد بن عبد الوهاب بن سليمان، **مختصر سيرة الرسول**، (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ص٣٥-٣٦.

(١٢) يعتمد كاتب المقال مصطلح (prophecy) الدال في معناه على (نبوءة) أو (تكهن)، أكثر ممَّا يُعبِّر عن مصطلح الـ(نبوَّة)، الذي يمكن الدلالة أو التعبير عنه باستخدام تعبير (Prophethood).

(١٣) يقصد بهِ: الشيخ المُحقق مُحمَّد مُصطفى الأعظمي (١٩٣٢-٢٠١٧م). وهو العالم المسلم الهندي. تخصَّص بدراسة الحديث النبوي، كما اشتهر بتدقيقهِ وتمحيصهِ لبعض مؤلَّفات المستشرقين عن الإسلام والحضارة الإسلامية. ولد في مدينة (منو) بالهند، أخرجه والده من المدرسة الثانوية الإنجليزية، وألحقه بالمدرسة العربية، حيث كان والده معادي للاحتلال البريطاني للهند، تخرَّج من دار العلوم بديوبند في حدود سنة ١٩٥٢م، ثمَّ التحق بالأزهر بمصر، وتحديداً إلى كلية اللغة العربية، وحصل على شهادة العالمية مع الإجازة بالتدريس، ثمَّ رجع إلى الهند. عَمِل في قَطَر مدرساً للغة العربية لغير الناطقين بها، ثمَّ أصبح الأمين على دار الكتب القَطَرية، وكانت تُسمَّى (المكتبة العامة). ودَرَس الحديث بجامعة كامبريدج University of Cambridge. ثمَّ قَدِم إلى الحجاز، ودرَّس بكلية الشريعة بمكَّة، ثمَّ انتقل إلى كلية الشريعة بالرياض أستاذاً لمادة مصطلح الحديث في قسم الثقافة الإسلامية. وقد أجرى الأعظمي دراساتٍ مركَّزة على السُّنَّة النبوية؛ اكتشافاً لبعض المخطوطات فيها وتحقيقاً لها، وبياناً لمنهج المُحدِّثين في نقدهم، ورداً على المستشرقين، وتاريخ النص القرآني من الوحي إلى التدوين. من أبرز مؤلَّفاتهِ: (دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه)، (منهج النقد عند المحدثين)، (دراسة نقدية لكتاب أصول الشريعة المُحمَّدية للمُستشرق شاخت)، (تاريخ تدوين القرآن الكريم). لمزيدٍ من التفاصيل، يُنظر: أسنوي، عقدي رفيق، **دراسة محمد مصطفى الأعظمي للمخطوطات القرآنية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حمد بن خليفة، كلية الدراسات الإسلامية، قطر، ٢٠١٩م، ص٤٤-٥٧.

(١٤) يقصد بهِ: المُستشرق الألماني غريغور شولر Gregor Schoeler. المولود سنة ١٩٤٤م. وهو الأستاذ الفخري للدراسات الإسلامية في جامعة بازل منذ عام ٢٠٠٩م. وكان أستاذاً في الدراسات الإسلامية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في جامعة السوربون منذ العام ١٩٨٢م. أصدر في عام ٢٠٠٢م كتاب (الكتابة والنقل في صدر الإسلام)، الذي نُشر أولاً بالفرنسية تحت عنوان: (Écrire et transmettre dans les débuts de l'islam)، ثمَّ الإنكليزية فالعربية. وهو عبارة عن مجموعة محاضراتٍ تمَّ إلقاؤها على الطلَّاب قبل أنْ تتحول إلى كتاب.

Mustafa Shah, *Review of "The Oral and the Written in Early Islam" by Gregor Schoeler*, translated by: Uwe Vagelpohl, Journal of Qur'anic Studies, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2009, 10 (1), p.98-128.